عبرة من قصة يوسف عليه السلام

﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾

في القصص القرآني عبر تضيء الدروب، وتغني تجارب الأمة، وتمنح العاملين رصيداً من الثقة بطرائق الخير وما تؤدي إليه، ومزيداً من الوعي لطرائق الشر والانحراف وضرورة البعد عنها، وتجنب كل ما هو منها بسبب. وذلكم أحسن القصص.

وترى في هذا القصص نتائج أثمرتها مقدمات، وقيماً عملت عملها في هذا الجانب أو ذاك من جوانب الحياة يقول اللّه تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾[يوسف: ٣].

من هذا القصص القرآني قصة يوسف عليه السلام التي كان منها سجنه بعد فرية افتريت عليه، وأن الملك رأى فيما يرى النائم سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات.﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾[يوسف: ٤٣]. وجيء بيوسف عليه السلام وطلب إليه الإفتاء في الرؤيا، فأولها بما أخبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾[يوسف: ٤٦-٤٩].

وكان أن امتلأت نفس صاحب الرؤيا تقديراً ليوسف عليه السلام، وإكباراً لما رأى من ثاقب ذهنه ونفاذ بصيرته، فأراد ـ لهذا ـ أن يستخلصه لنفسه، وقد أفصح له عن ذلك عندما اجتمع إليه، وأخبره أنه ذو مكانة عالية وموضع ثقة وائتمان، وأنه

مخوِّله تخويلاً مطلقاً فعل ما يشاء في أمور الزرع، وادخار المؤونة لدفع المجاعة، وضمان ولو اليسير من الكفاية، ذلكم قوله جل وعلا:﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ [يوسف: ٥٤].

ولما رأى يوسف عليه السلام هذه الثقة والتخويل المؤكدين، طلب إليه أن يجعله على خزائن مصر؛ لأنه قادر على القيام بالمهمة الصعبة في تلك الأيام العصيبة، وهو بحمد اللَّه ذو كفاءة لما يوكل إليه وأمانة لما يؤتمن عليه ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾[يوسف: ٥٥].

وكان ما كان؛ حيث صدقت الرؤيا، وصدق تأويل يوسف لها، وخرجت البلاد من المحنة وتجاوزت بعون اللَّه، ثم بجدارة يوسف وكفاءته فيما ولي من خزائن، وبحفظه وأمانته فيما كان تحت يده من المال وشؤون الاقتصاد.. تجاوزت ما كان يمكن أن يقع من المجاعة وسوء الحال.

وغير خافٍ أن موطن العبرة في هذا الجانب من القصة المثقلة بالوقائع: ما حصل من النتائج العظيمة على يد يوسف عليه السلام في حقبة حرجة قاسية، حيث استطاع ـ بعون اللَّه وفضله ـ أن يخرج البلاد من الأزمة ويجنبها مجاعة مرتقبة تأخذ الإنسان والزرع والضرع، كل ذلك لأنه جمع بين العلم بما كلف به من مهام، فكان جديراً بذلك، وبين الأمانة والصدق ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾وهذان عاملان أساسيان تبرز ضرورتهما لكل مجتمع يهدف إلى البناء والتنمية وتسيير الموارد والطاقات في قنواتها المثمرة والمنتجة في ضوء العلم.

فإذا توافرت الكفاءة العلمية والأهلية التقنية، واجتمع لذلك الأمانة القائمة على عقيدة راسخة ووازع إيماني من داخل النفس، كانت الأمة في مأمن على ما تريد عند التخطيط المدروس، وعند التنفيذ وترجمة الدراسة إلى عمل ناطق في كل ميدان من ميادين الحياة.

هكذا يعمل العلم عمله وتعمل الأمانة عملها في بناء كيان الأمة وتنمية وجودها الذاتي ودفع العاديات عنها، وفي القصص القرآني عبر تذكر ومعالم حياة تضيء الدروب.

وعِبَرُ القصص أمانة في الأعناق، وإنما يخرج من عهدة ذلك تقوى اللَّه بحسن الانتفاع بها. واللَّه ولي المتقين.